سماحـــة الإسلام

الأستاذ عبد القادر عثماني*

إنّ الحديث عن الإسلام والمسلمين في هذا الظرف له من الأهمية والجاذبية النصيب الأوفر. فقد شغل الإسلام أعداءه أكثر ممّا شغل أولياءه وشغل الخارجين عنه بتشويهه أكثر ممّا شغل الداخلين فيه بإزالة ما لحق به من أذى وتشويه واتّخذه بعضهم عملة مزوّرة في تجارة خاسرة ونسوا عظمة الإسلام وقوتّه الصافية الطيبة لأنهم ضعفاء عقل وعديمو فكر وجهل وغرور ولا تتغذّى أفكارهم إلاّ بالتبعية الّتي لا يعترف بها الإسلام القوي. فقوّة الإسلام مستمدة من مقوّماته وأرى أن أهم عناصر مقوّمات هذا الإسلام هي سماحته في تشريعاته للحقوق والواجبات الّتي نزل بها دستوره القويم القرآن المجيد وبيّنتها السنّة النّبويّة قولاً وعملاً وتقريرًا وأبرزتها في الحياة تطبيقًا مشرقًا أعمال الراشدين وأئمة الهدى من المصلحين. سماحة الإسلام هي الّتي استمد منها قوته وصلاحيته وبقاءه وتوسّعه وسرعة انتشاره ورحابة صدره الّتي يتحمّل بها مخالفة مخالفيه ويسّر لهم الاحتماء به متَى رضوا أن يستظلوا بظلّه ويعتزوا بعزّته ﴿**وَلِلَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمنينَ وَلَكنَّ الْمُنَافقينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[1]، فالّذي لا يفقه لا يدرك حقيقة الإسلام وسماحته ورحمته وسموّه وهدايته ونظافته ونوره ﴿**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ منْ نُورٍ**﴾[2].

عظمة الإسلام عرفها العظماء من كل الأجناس والملل وعلى اطراد الأجيال، وشهدوا بها وأشادوا. فنالوا بدورهم مزيدًا من الشهرة والتقدير والاعتبار لصدق ما قالوا.

---

* عضو المجلس الإسلامي الأعلى ورئيس الزاوية الرحمانية بمدينة طولقة (بسكرة).

1. سورة المنافقون، الآية 8 ـ 2. سورة النور، الآية 40.

ويذكر الكثير ممّن اهتدوا إلى الإسلام أن من دواعي اهتدائهم ما وجدوا في هذا الدِّين من سعة الصدر والأمر بالرفق والإحسان في معاملة المخالفين. يقول الأستاذ "إدوارد مونتي" Montet (Edouard) مدير جامعة جنيف أمام جمعية أساتذة في كلية فرنسا بباريس عام 1910: لقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة قلّمَا توجد ديانات كانت تنتشر ولا زالت تنتشر بمثل انتشار الإسلام.

وإن سرعة الفتوحات الإسلامية في أوّل عهده كانت عظيمة وباهرة حتّى لقد تكوّنت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة الّتي وطّدت سلطة محمّد ووسّعت إصلاحاته بعيدًا عن حدود بلاد العرب.

وأضاف يقول: لقد كرّروا ولا زالوا يكرّرون إلى الآن أن نجاح انتشار العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوّة السيف ولكن هذه الفكرة قد كذّبتها الوقائع ويقول الأستاذ الأمريكي "درابر" Dryber وهو من كبار الفلاسفة وعلماء التاريخ: (إن شعوب الأرض لم تر قط دينًا بلغ في لطفه وسماحته وسهولته على أهله وأهل ذمّته كدين الإسلام).

ويقول "غوستاف لوبون" Le Bon (Gustave) إن العرب أوّل مَن علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدِّين. ويقول "رينان" Renan الفيلسوف الفرنسي في عرض له عن تسامح الدِّين الإسلامي: "إنّي أخشى أن يثبت الدِّين الإسلامي وحده في تسامحه العام في العقائد ولكنّني أعرف أنّه في نفوس بعض النّاس المتمسّكين بالآداب الإسلامية القديمة عناصر جيّدة تدل على فكر واسع وعقل ميّال إلى المسألة إلاّ أنّني أخشى أن تختنق هذه العناصر بتعصّب بعض الفقهاء. فإذا اختنقت قضيّ على الدِّين الإسلامي ويحلّل فيقول: ذلك أنّه من الثابت الآن أمران:

الأول: إن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرّة لأنها تصلح أن تكون وسيلة إليه.

والثاني: إنّه (أي التمدن الحديث) لا يطيق أن تكون الأديان عثرة في سبيله فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين وإلاّ كان موتها حتمًا مقضيًا". انتهى كلام رينان.

ويقول "الأمير عبد القادر": "إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبّهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمّهات".

ولعلّ الأمير استوحى هذا من معنى الحديث النّبويّ المرويّ عن الإمام أحمد والّذي جاء في محاضرة أخينا الفاضل الدكتور عبد الرحمان طالب الملقاة على مسامعكم مساء أمس وهو إن "الأنبياء إخوة دينهم واحد وأمهاتهم شتّى".

وإليكم أيّها السّادة بعض الأمثلة من سماحة الإسلام أن من سماحة الإسلام ومن أهم وظائفه إزالة خلافاته مع اليهود والنصارى ودعوته إلى الائتلاف والمودة. قال تعالى مخاطبًا الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وسلّم: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1].

ومن سماحة الإسلام أنّه ينهى المسلمين عن مقاطعة ومعاداة ذوي قُرباهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم. قال تعالى: ﴿**وَأَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾[2] وحتّى غير الأقارب وغير المسلمين كما جاء في قوله تعالى بعدما ذكر الجار ذا القربى، وقال: ﴿**وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**﴾[3]. فشمل غير القريب في النسب وغير المسلم.

---

1. سورة آل عمران، الآية 64 ـ **2.** سورة العنكبوت، الآية 29 ـ **3.** سورة نساء، الآية 4

ومن سماحة الإسلام ما جاء في الكلمة الإيمانية والمتأثرة بسماحة الإسلام الّتي تفضّل بإلقائها أمامكم يوم أمس أخونا من الأب على حد تعريف الأمير عبد القادر المذكور من قبل قليل سماحة رئيس الأساقفة السيد "تيسيي المحترم" الّذي احترمنا وذلك بمخاطباته إيّانا بلغتنا الوطنية.

فللسيد تيسي مزيدًا من الشكر والتقدير والاحترام على تسامحه في تحاشي التكلم بلغته الأصلية التي لم يشأ أن يزعج بها من لا يعرفها من المستمعين.

ومن سماحة الإسلام ومن قواعده المعروفة أنه إذا صدر من أحد قول أو أيّ تصرف يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر فأيّ تسامح أوسع من هذا؟

ومن سماحة الإسلام أنّه إذا ترافع إلى القاضي متخاصمون بينهم قرابة له أن يحكم بينهم بما يتصالحون عليه ويتراضون ولو ظهر له وجه الحق مخالفًا لمّا اصطلحوا وتراضوا عليه فلا يحكم به بينهم والأصل في الشرع أن الصلح لا يجوز إذا ظهر وجه الحق ولكن حسن العلاقة بين الأقارب اعتبرها سماحة الإسلام أولى من الحكم بالحق والعدل وكذلك الحال إذا عفا أولياء مقتول عن قاتله فلا قصاص.

ومن سماحة الإسلام أنّه أباح للمسلم الزواج بكتابية نصرانية أو يهودية وأعطاها الحق في البقاء على دينها والقيام بفرائض دينها وتذهب إلى الكنيسة وهي من زوجها بمنزلة جزء منه و لم يفرّق الإسلام في الحقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[1]، فلها حظّها من المودة ونصيبها من الرحمة وهي على غير دين الإسلام. فالإسلام بهذا التسامح يعوّد المسلم على ألفة ومعاشرة ومودة من يخالفه في عقيدته ودينه وملّته.

---

1. سورة الروم، الآية 21.

ومن سماحة الإسلام أنّه يبيح عدم تطبيق أحكامه في حالات كثيرة عندما تكون فتنة فتعطّل الأحكام كما في حالة الطوارئ فيتوقف العمل بالدستور كما لا تقطع يد السارق عندما يجوع مثل ما فعل عمر كذلك لا يلاحق المرجوم إن هرب من حفرته لإكمال العقوبة عليه فلا تكمل.

ومن سماحة الإسلام أنّه يقرّر اختلاف العقول في الفهم لذلك أعطى المخطئ أجرًا والمصيب أجرين فوسع الجميع في كنفه الرحب ما داموا مخلصين في طلب الحق حرصًا على معرفته والعمل به.

ومن سماحة الإسلام أنّه أباح للمسلم أن يأخذ العلم من أيّ كان ومن أيّ لسان ولا يُبالي ما تكون عقيدة معلّمه إن نفعت حكمته، وجاء في الحديث الشّريف: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»[1]، وقد عرض النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على أسارى المشركين أن يعلّموا القراءة والكتابة للأميين من المسلمين على أن يفرج عنهم، والمسلم مطالب شرعًا بطلب العلم ولو بالصين و لم يوجد مسلم بالصين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذي أمر بذلك.

ومن سماحة الإسلام في العبادات وأهمّها الأركان: الصّلاة والزكاة والصيام والحج فإنّه يكاد يسقطها واحدة واحدة، فلا صلاة لفاقد الماء والصعيد كما قال الشيخ خليل في مختصره: "وسقطت بعدم ماء وصعيد".

ولا صيام على مريض أو مسافر أو هرم، ومرضع وحامل إن خافتا على ولديهما، ولا حج على عديم مال أو صحّة أو أمن ولا زكاة على مَن ليس له نصاب ممّا تجب فيه الزكاة أو كان مدينًا في غير ثمرة وماشية لوجوب الزكاة في عينها.

فسماحة الإسلام تبيح فعل كل ما حرّمه، وتجيز ترك كل ما فرضه، وذلك عند الضرورة أو الإكراه، غير أن هذه الضرورة يجب أن تقاس بمقياسه هو لا بحسب الأهواء والرغبات والأغراض والترخيص والتساهل.

---

1. رواه ابن ماجة.

ومن سماحة الإسلام حرية التفكير، وحرية التفكير تتناول حرية التعبير وتتناول حرية الرأي والجهر بالحق، وقد أخذ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، العهد على أصحابه أن يقولوا الحق ولو مُرًا، وأن لا يخافوا في الحق لومة لائم ويقول: «السَّاكتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ»[1]، ويقول: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[2].

وكانت المرأة تملك من الرأي ما تخطئ به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد أراد أن ينهى عن الغلو في المهور، فقالت له إمرأة: يا أمير المؤمنين، الله يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[3]، فقال عمر (كلّ النّاس أفقه منك يا عمر حتّى النِّساء، أصابت امرأة وأخطأ عمر). ويدخل في حرية التفكير حرية الصحافة والخطابة، وحرية اعتقاد ما يراه الإنسان من ظواهر الطبيعة والفلك والحيوان والإنسان.

فالإسلام لم يفرض عقيدة خاصة أو يوجب نظرية علمية على العقل، ولم يمنع الإسلام التفكير إلاّ في ذات الله، لأن ذات الله لا تحيط بها الأفكار.

كذلك حرّم الإسلام الدعوة إلى إضعاف الدِّين وإفساد الخلق والترويج للإلحاد والفتنة وأوجب عقاب مَن يقوم بذلك لا لأنه يفكّر ولكن لم يرد أن يقصّر حقّه في الحرية على شخصه فقط، بل أراد أن يقيّد غيره بفكرته تلك ممّا يكون سببًا لفساد نظام أو نشر فتنة واضطراب أمن إذا استمر مدعى الحرية في غلوائه، فالإسلام يجيز لحفّاظ النظام أن يعملوا على تنقيه المجتمع ممّا يفتنه ويزعزع بنيانه.

ويقول آخرون إن التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذهم السيف لغلوهم في فكرتهم، ولم تترك لهم الحرية، كما كان أمر الحلاج.

---

1. رواه مسلم وابن ماجة ـ **2.** رواه النسائي ـ **3.** سورة النساء، الآية 20.

عن هذه المسألة يجيب إمام الحرمين في كتابه الشامل في أصول الدِّين فيقول: إن "الحلاج كان بينه وبين أبي سعيد الجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة، وإذ ذلك هو سبب قتل الحلاج".

إن بعض العلماء في الإسلام أخذتهم قسوة وحماقة الملوك وذلك بإغراء من الفقهاء وأهل الغلو في الدِّين وليست الغيرة على الدِّين هي الّتي تلام على الوشي بهم وطلب تنكيلهم أو قتلهم وإنّما الحسد هو العامل الأول في ذلك كلّه والدِّين آلة له، ولهذا نرى أنّه لا يقع الأذى إلاّ على أكابر العلماء كقاضي القضاة "ابن رشد" ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلة أعلى دليل بل كان كثير من الخلفاء وعلى رأسهم المأمون يضطهدون أعداء الفلسفة، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة قضوا في السجن الشهور أو السنين لأنّهم كانوا يعادون الفلسفة ظنًا منهم ما يفسد الدِّين.

فهل يجد المرء في غير الإسلام رئيس دولة يضطهد أعداء العلم؟ قطعا، لا. ولقد كان من آثار حرية الفكر في الإسلام هذه الثروة الثقافية الضخمة الّتي تزخر بها المكتبة الإسلامية في الفلسفة والتوحيد والمنطق والأصول والتصوف والفقه وعلوم الطب والطبيعة والهندسة والرياضة والفلك وغير ذلك ممّا كان سببًا في إقامة النهضة الأوروبية.

كان الدِّين هو الّذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ويسيح في الأرض ويصعّد إلى جو السّماء ليقف على أثر من آثار الله تعالى أو يكشف سرًّا من أسراره في خليقته أو يستنبط حكمًا من أحكام شريعته. قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1]، يقول الشيخ محمد عبده: "إن التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره، يكاد

1. سورة فصلت، الآية 53.

يكون خفيًا سرّه، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد، يجلس فيها للتدريس، الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والرياضي والطبيعي والفلكي والمهندس والجغرافي والمؤرخ، ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب، وإذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع وسقطت قيمة العلو في التعبير، وأخذ التسامح بينهم مأخذه، وكلّ فريق يأخذ من الآخر، لا يُبالي بمخالفته في رأيه، مسجدهم واحد وخطيبهم واحد وكلٌّ يرى من صاحبه عونًا على ما يشتغل به هو.

وكان "عمرو بين عبيد" شيخ المعتزلة بالبصرة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه، ومع ذلك هو من رجال سند الإمام البخاري صاحب الصحيح، نرى البخاري وهو من أئمة السنّة يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأسًا، وروى عنه كذلك "أبو موسى الأشعري" شيخ أهل السنّة وكذا "ابن عباس" و"ابن عمر" وجماعة. وكان عمرو هذا يجلس بين يدي "الحسن البصري" شيخ أهل السنّة من التابعين يتلقّى عنه، وقد سُئل الحسن عنه فقال للسائل: لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدّبته وكأن الأنبياء ربّته إلى آخر ما قال فيه مدحًا.

ومن شيوخ الإمام البخاري **"عمران بن حطان"** وهو من شيوخ الخوارج. ومن شيوخ الإمام أبي حنيفة "زيد بن عليّ" صاحب مذهب الزيدية من الشيعة، كان الإمام يتعلّم منه أصول العقائد والفقه.

أختم كلمتي بذكر خبر ورد في الأيام الأخيرة عن هجوم غربي وبإجماع من الغرب جاء في صورة فزع وخوف وتخويف من الإسلام، صيحة جماعية تمهّد حملة عسكرية صليبية جديدة، جاءت على لسان الأمين العام للحلف الأطلسي "ويلي كلاس" Claes (Willy) قبل مغادرته الحلف عند اكتشاف فضيحة مالية كان هو بطلها، يكشف ما ورد في تقرير صادر

من (منظمة اتحاد أوروبا الغربية) يتكوّن التقرير من أربعين 40 صفحة بعنوان (الأمن في منطقة البحر المتوسط) يتضمن التقرير تحليلاً عن قضايَا الأمن في منطقة البحر المتوسط، مستعرضًا الأخطار الّتي تهدّد استقرار أوروبا والدول الصديقة المرتبطة بها ويقول التقرير، إنّه بزوال الاتحاد السوفياتي وحلّ حلف وارسو لم يعد الشرق مصدر الخوف، بل الجنوب لأن الإسلام أصبح يمثّل اليوم الخطر الرئيسي الّذي يهدّد الغرب.

ويتضمن التقرير إحدى وثلاثين (31) توصية تدور كلّها حول قضايا ومشكلات جنوب المتوسط. ونادرًا ما ترد الإشارة إلى قضايا أوروبا الّتي من المفروض أن يهتم بها التقرير، بدلاً من التدخل في شؤون المسلمين على جنوب المتوسط.

وتهدف التوصيات إلى وجوب تحقيق أمن جماعي في منطقة المتوسط ذلك بواسطة إبرام اتفاقيات أمنية وعقد أحلاف عسكرية، وتأسيس جهاز دفاعي أوروبي متوسطي مشترك ضدّ أيّ عدوان.

ويوضّح التقرير في الصفحة الثامن عشرة طبيعة هذا العدوان فيقول: عن الرد على خطر الأصولية الإسلامية يتطلّب قبل كلّ شيء استكمال معلوماتنا وتحليلاتنا حول أبعاد هذا الخطر، ويقول كاشف التقرير "ويلي كلاي" إنّ هذه السياسة الّتي آمن بها قادة أوربا ويحذّر بدوره من تصاعد النفوذ الإسلامي.

فهل للإسلام نفوذ؟

واليوم الثلاثاء 31 مارس 1998 جاء في أخبار "أم. بي، سي"، في نشرتها الإخبارية الصباحية المكتوبة ما يلي: "أعرب رئيس أجهزة الاستخبارات في ألمانيا "بير فريش" عن قلقه من نشاط المنظمات الإسلامية في ألمانيا الّتي تشكّل على حد قوله تهديدًا للأمن والنظام للمواطنين" هكذا ورد الخبر.

والنشاط المهدّد المذكور هو ما جاء في أخبار أخرى قبل ذلك أن جمعية خيرية إسلامية تجمع تبرعات مالية بمناسبة عيد الأضحى لمسلمي البوسنة المنكوبين.

وهكذا يعتبرون كلّ تضامن إسلامي من جميع التشكيلات. لا يخافون المسلمين أبدًا لضعفهم وإنّما خوفهم من الإسلام.

وقد يعتبر ملتقانا هذا أيضًا مهدّدًا لأمن مَن لا أمان فيهم ولا إيمان في الداخل والخارج، أليس كذلك؟ إنّهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

1. سورة المنافقون، الآية 4.